تل الزعتر يقاوم التغييب



بسام الكعبي

أربعون عاماً على المجزرة:

مخيم تل الزعتر يقاوم التغييب

بسام الكعبي

أربعون عاماً على المجزرة:

مخيم تل الزعتر يقاوم التغييب

صورة الغلاف: «**تل الزعتر**» الفنان اسماعيل شموط

صور الغلاف الخلفي | من الانترنت.

تصميم | «**مجد**» للتصميم والفنون حيفا.

الطبعة الأولى، حيفا، آب 2016.

أربعون عاماً على المجزرة:

مخيم تل الزعتر يقاوم التغييب

بسام الكعبي

2 0 1 6

بسام الكعبي

بكالوريوس صحافة من جامعة بغداد.

محرر ومدرّب صحفي في فنون الكتابة.

متخصص في القصة الصحافية، الريبورتاج والبروفايل.

وضع كتاباً متخصصاً بعنوان (**القصة الصحافية وفن الكتابة الإبداعية**).

حاضر في قسم الصحافة ودرّب في معهد الإعلام (جامعة بيرزيت).

شارك في إصدار سلسلة عن القرى الفلسطينية المدمرة (مركز أبحاث جامعة بيرزيت).

أصدر عدة كتب تتناول بأسلوب البروفايل الصحفي مسيرة شخصيات ثقافية ومجتمعية فلسطينية.

@ bfeature2000@yahoo.com

bassam kabi

إهداء..

إلى المناضلة الأممية إيفا شتال التي بلّسمت جراح تل الزعتر وقدمت لفقرائه كل ما تملك.

إلى المقاتلين الأشداء الذين لم ينكسروا، وصنعوا من تل الزعتر أسطورة في الكفاح والصمود والتحدي، وقرعوا باب التاريخ بقامات مرتفعة.

إلى الأرواح البريئة التي حصدتها آلة الدمار الفاشية، بطبعات متعددة، ودون رحمة.

إلى مشردي المخيم المقاتل في كل بقعة لامست طهر حضورهم الكفاحي؛ أهدي هذا النص المتواضع على طريق إنتزاع حق العودة إلى فلسطين.

ب ك

أربعون عاماً على المجزرة:

مخيم تل الزعتر يقاوم التغييب

فَقَد اللاجئ محمد إبراهيم عبد الله الصوالحة (أبو أيمن) يوم 27 تموز 1976، قبل أربعين عاماً بالضبط، كل أفراد أسرته المكونة من زوجة حامل ونجليه الصغيرين أيمن (4 سنوات) ومروان (سنة ونصف)؛ في قصف وحشي للقوات الانعزالية اليمينية اللبنانية، استهدف ملجأ في حي الدكوانة اللبناني الملاصق للمخيم، عندما فر إليه مجموعة من الأطفال والنساء والشيوخ هرباً من القذائف الكثيفة التي تحرق كل زاوية في مخيم تل الزعتر؛ الواقع على مسافة سبعة كيلو مترات شرقي بيروت.

نجا أبو أيمن من موت محقق لأنه كان ينفذ مهمة مستعجلة في بيروت، تقتضي وضع اللمسات الأخيرة على تأسيس مصنع جلد ودباغة في تل الزعتر؛ لصالح مؤسسة صامد الفلسطينية التي كان ينشط معها، بغرض تشغيل مجموعة من عمال المخيم، وتوفير الاحتياجات الأساسية لعائلاتهم.

عَلمَ أبو أيمن بأمر المجزرة التي راح ضحيتها زوجته الشابة ونجليه الصغيرين، وأكثر من 150 لاجئاً من الأطفال والنساء والشيوخ في الملجأ المدمر، ولم يتمكن من وصول المخيم تحت قذائف مدافع لا ترحم اللاجئين، وطرق تكتظ

بحواجز المليشيات اليمينية، وتقطع كل سبيل للوصول إلى تل الزعتر، وقد تزايدت مع ظهور حركة انشقاق واسعة في الجيش اللبناني قادها العميد عزيز الأحدب قائد المنطقة العسكرية في بيروت مساء 11 آذار 1976.

قطع طرق

وصف الأحدب حركته «بالاصلاحية» وترمي لانقاذ الجيش الآخذ بالتصدع عقب قيام الملازم أحمد الخطيب صباح 21 كانون ثاني1976 بالإعلان عن (جيش لبنان العربي) وتَمَرد على قيادة الجيش، وهاجم الثكنات العسكرية، واجتاح معظمها بدعم الحركة الوطنية اللبنانية والمقاومة الفلسطينية، وبفضل حركته العروبية أسهم الخطيب ورفاقه في تغيير عقيدة الجيش في لبنان. إنتهى الأمر بالملازم الخطيب سجيناً سياسياً في معتقلات النظام السوري أواخر 1976، بعد مواجهات عنيفة مع قوات الرئيس السابق حافظ الأسد في البقاع وبحمدون. حكم بالاعدام لكن وساطة بغداد وطرابلس الغرب والقاهرة حررته من حبل المشنقة. قضى سنتين في السجن قبل الافراج عنه، وفشل سنة 1992 في الانتخابات البرلمانية لأنه رفض التحالف مع أية كتلة، ولم يحالفه الحظ بخطف مقعد نيابي عن إقليم الخروب. عاش في عزلة حتى خروج القوات السورية من لبنان سنة2005 ليقترب من تيار سعد الحريري، ورحل بصمت يوم 8 شباط 2014 عن 64 عاماً بعد عقود من التغييب لدوره اللامع في الجيش اللبناني.

طَلب الأحدب عبر بلاغ عسكري متلّفز من رئيس الجمهورية سليمان فرنجية

الاستقالة تمهيداً لانتخابات رئيس جديد خلال عشرة أيام . إلتزم قائد الجيش حنا سعيد الصمت ، فيما أقدمت ميليشيات الجبهة اللبنانية الانعزالية على احتلال ثكنة الفياضية ، وأعلن العقيد أنطوان بركات ولاءه للرئيس فرنجية بتأسيس (جيش الشرعية) في حين شكل العقيد أنطوان لحد تجمعاً عسكرياً في ثكنة صربا ، وآخر في زحلة بقيادة المقدم إبراهيم طنوس .

طائر الرعد

في هذه الأجواء المتوترة حول تل الزعتر والمخيمات ، واجه أبو أيمن عبد الله ظروف مذبحة عائلته وانقطاع الطريق للوصول إلى فقراء المخيم وتأمين احتياجاتهم الضرورية ، لكنه لم ييأس ، وتماسك مؤمناً بقدر الفلسطيني اللاجئ ، وقرر إعادة بناء أسرة جديدة من أجل ضمان حقها في العودة إلى الوطن الجريح . تزوج للمرة الثانية سنة 1979 عقب المذبحة بثلاث سنوات ، وغادر بعد العدوان الإسرائيلي الذي استهدف لبنان مطلع حزيران 1982 إلى العاصمة الألمانية برلين ، وقد أنجب ثلاثة أبناء أطلق على أكبرهم إسم أيمن تيمناً بشقيقه الشهيد ، وثماني بنات .

واظبت أصغرهن سارة طوال دراستها الثانوية في برلين قبل خمس سنوات على زيارة رام الله ، عبر تبادل ثقافي بين مدرستها الألمانية ومدرسة الرجاء اللوثرية . كانت تصر دوماً على أنها سارة الزعتر بدموع تجتاحها كلما عادت في نهاية الصيف إلى برلين : «كل الطلاب يعودون إلى أوطانهم لماذا أغادر وطني وحدي؟! أنا لستُ ألمانية أنا فلسطينية» . كانت تتفجر بدموع

الحزن والغضب والحنين لوطن يستولي على قلبها وعقلها، وتحجب حزنها خلف زجاج داكن لحافلة تستعد للانطلاق إلى مطار اللد في طريق عودتها إلى المنفى في ألمانيا. مراراً استضافت ابنتي نادين زميلتها الطالبة سارة عبد الله في البيت، وتطورت علاقة صداقة متينة بينهما، عبدت الطريق إلى صداقة أسرية مع عائلة عبد الله الطيبة عبر تبادل مكالمات هاتفية في المناسبات المتعددة.

وعبر الهاتف، استعدتُ منذ أيام مع الصديق أبو أيمن (64سنة) من بيته في برلين، رحلة شقاء لاجئي تل الزعتر عقب نكبة 1948 واستقرارهم في المخيم، وكيفية وصول عائلته المهجرة إلى المخيم سنة 1949 والاستقرار فيه، وإستعاد عبر سماعة الهاتف من المنفى الألماني وقائع التهجير، وسوء الحظ، والمجازر البشعة، واللجوء الانساني في ألمانيا.

لجوء يفتح شهية الاستغلال!

هاجر إبراهيم عبد الله الصوالحة، والد أبو أيمن، وأفراد عائلته من بلدة الخالصة في الجليل الأعلى شمال فلسطين باتجاه لبنان وسوريا. تقع الخالصة شمال صفد وتبعد 28 كيلومتراً عن المدينة، وتنتشر على تل منخفض لا يتجاوز 150 متراً عن سطح البحر، ويتمدد في الطرف الشمالي الغربي من سهل الحولة. كان التل يحمي الخالصة من الفيضانات الموسمية التي تغرق بحيرة الحولة بالمياه. بلغ تعداد سكان القرية سنة 1948 نحو ألفي نسمة، فيما بلغت مساحة أراضيها الزراعية نحو 11 ألف دونم. أُحتلت الخالصة

يوم 11 أيار 1948 بعد مغادرة الأهالي وإدراكهم لحجم الخطر عقب احتلال مدينة صفد، واضطر السكان للرحيل القسري إلى شمال فلسطين المحتلة. أقيم على أراضي الخالصة مستوطنة كريات شمونة سنة 1950.

إستقر معظم أفراد عائلة عبد الله في تل الزعتر، فيما توزع مهجرو الخالصة بين بلدة النبطية اللبنانية ومخيمات جنوب لبنان وبيروت ومخيم تدمر في سوريا. عاش إبراهيم في تل الزعتر منذ العام 1949 وأنجب 14 نفراً معظمهم في المخيم. ولد محمد إبراهيم سنة 1952 في المخيم باعتباره الإبن الرابع للأسرة، وعاش في تل الزعتر وتعلم في مدارس وكالة الغوث، وتزوج سنة 1972 في مطلع شبابه قبل أن يجتاز عتبة العشرين من عمره. التحق بمؤسسة صامد، الذراع الاقتصادي لمنظمة التحرير الفلسطينية، وأظهر قدرات في العمل المهني في منطقة صناعية استقطبت أعداداً كبيرة من عمال فلسطين وفقراء لبنان وسوريا، ووجدوا في تل الزعتر ملاذاً آمناً للاقامة فيه والعمل في منطقة المكلس الصناعية المجاورة.

أقيم المخيم سنة 1949 تحت إسم الدكوانة وفق وثائق وكالة الغوث؛ نسبة إلى الحي اللبناني الملاصق، لكن سرعان ما تغير الإسم ليخطف تل الزعتر من معمل صناعي يعيد انتاج الزعتر ويتجاور مع تل أقيمت عليه بيوت الصفيح. أقامت المجموعة الأولى من عائلات اللاجئين التي لم تتجاوز الخمسين عائلة على أرض وقف للطائفة المارونية اللبنانية ولا تتجاوز مساحة الأرض 360 دونمًا قبل أن تتمدد مع تزايد اللاجئين والفقراء. استخدم أرض الوقف الماروني الجيش البريطاني وحولها معسكراً لجنوده خلال الحرب العالمية الثانية، وفكك معداته الحربية مع نهاية الحرب

الثانية سنة 1945 و«جهزها» لاستقبال لاجئي نكبة فلسطين؛ وقد ساهم الانتداب البريطاني كثيراً في إنتاج النكبة وتشريد شعب فلسطين وتدمير القرى، وإقامة كيان للمهاجرين اليهود في فلسطين!

يلاصق تل الزعتر من جهة الشرق المنصورية وعين سعادة ودير مار روكز ومنطقة المكلس الصناعية التي تمتد أيضاً إلى جنوب المخيم إلى جانب بلدة جسر الباشا والحازمية، ومن الغرب سن الفيل والقصر الجمهوري القديم وحرش ثابت، ويحده من الشمال بلدة الدكوانة. تضخم المخيم تدريجياً مع لجوء عائلات فلسطينية من مخيمات الرشيدية، البرج الشمالي والجنوب اللبناني، واستقطب عائلات لبنانية فقيرة من الجنوب والبقاع للعمل مع اللاجئين الفلسطينيين في منطقة المكلس الصناعية التي تمتلكها البرجوازية اللبنانية، وتستحوذ المكلس على ربع المصانع في لبنان. شكل العمل المأجور بقطاع واسع للخدمات في بيروت أيضاً تزايد عدد المقيمين في تل الزعتر لقربه من العاصمة اللبنانية، الأمر الذي بات يوفر إقامة غير مكلفة؛ لتكتمل أحزمة الفقر من فلسطينيين ولبنانيين وسوريين ومصريين حول منطقة المكلس الصناعية، وفنادق ومطاعم بيروت وخدماتها المختلفة. خضع المخيم لأجهزة الأمن اللبنانية حتى نهاية الستينات، لكن مع ظهور المقاومة الفلسطينية في الأردن ولبنان وسوريا؛ انخرط اللاجئون في فصائل المقاومة المسلحة، وأقاموا معسكرات تدريب في تل الزعتر، مثلما أقاموها في ستة عشر مخيماً في لبنان، ومجموعة من مخيمات اللاجئين في سوريا والأردن.

حصار محكم «حَطّم» التل!

خَلقَ الوضع الجديد لظهور المقاومة الفلسطينية المسلحة في منطقة تل الزعتر، مواجهات صامتة مع الكتائب اللبنانية اليمينية قبل تحوّلها إلى العلن بمواجهات مسلحة وعنيفة وانفجارات دامية. تسكن المنطقة الجغرافية أغلبية طائفية تعيش تحت هيمنة ونفوذ المليشيات الفاشية، وعلى وجه التحديد تحت سطوة عائلة الجميّل في منطقة المتن الجبلية، وبمسؤولية النائب أمين الجميّل مسؤول إقليم المتن الكتائبي والنجل الأكبر لزعيم الحزب بيار الجميّل، وتنمّر مجموعة مليشياوية صغيرة وعنيفة بزعامة قائد محلي يدعى مارون خوري! بدأت مليشيا خوري بتخزين السلاح وشرائه بكميات كبيرة منذ العام 1969 بذريعة التصدي لما اعتبروه «خطراً فلسطينياً داهماً»! تزايدت الاحتكاكات بين الطرفين عقب انتقال المقاومة الفلسطينية إلى لبنان، إثر هزيمة فصائل منظمة التحرير بمواجهة النظام الأردني خلال معارك عمان في أيلول1970 وأحراش عجلون 1971.

نفوذ مليشياوي!

تعرضت مخيمات لبنان ربيع 1973 إلى قصف الجيش اللبناني، في محاولة جادة لترحيل اللاجئين من منطقة بيروت الشرقية! استهدف القصف مخيمات تل الزعتر، جسر الباشا، ضبية ومار الياس. طوال عامين تطوع معظم طلبة لبنان، على إختلاف طوائفهم وتعدد أحزابهم التقدمية، من أجل مساندة فصائل المقاومة الفلسطينية والحركة الوطنية اللبنانية؛ في

تحصين تل الزعتر قبل اندلاع الحرب الأهلية يوم 13 نيسان 1975، التي سجلت فيها المقاومة والحركة الوطنية انتصاراً تدريجياً على الجبهة اليمينية الانعزالية، لولا تدخل القوات السورية مطلع نيسان 1976 بمحاصرة امتداد انتصارات المقاومة على الأرض، واكتساح مواقع تحالف الجبهة الانعزالية اليمينية بعناوينها المختلفة والمتعددة: حزب الكتائب بزعامة بيار الجميّل، ميليشيات النمور بإمرة كميل شمعون، ميليشيات زغرتا بزعامة طوني فرنجية، مليشيا «الأحرار» بزعامة داني شمعون، حراس الأرز بإمرة شارل عقل، «التنظيم الماروني» بإمرة جورج عدوان، و«حركة الموارنة» بزعامة مارون خوري، ومجموعة مسلحة بإمرة المليشياوي إيتان صقر.

شكل تل الزعتر صاعق تفجير الحرب الأهلية من خلال جريمة حافلة عين الرمانة الشهيرة يوم 13 نيسان 1975: فتح مسلحو الكتائب نيران أسلحتهم على حافلة (بوسطة) تقل لاجئين عائدين إلى تل الزعتر شرقي بيروت، عقب مهرجان سياسي للمقاومة الفلسطينية في مخيم شاتيلا غربي العاصمة اللبنانية. خطف إعتداء عين الرمانة أرواح 27 فلسطينياً بريئاً، وزعم المعتدون أنه جاء رداً على مقتل إثنين من أنصار الكتائب؛ يعمل أحدهما مرافقاً لزعيم المليشيات الكتائبية بيار الجميّل!

حصار يعبّد طريق مجزرة!

فرضت الحرب الأهلية وقائعها على المخيم، وبات من نقاط التماس العسكرية بين المتقاتلين الذين انقسموا بين محوري القتال: بيروت الشرقية

بمواجهة الغربية، وعبّر قادة الكتائب عن رغبتهم في «تطهير» المنطقة الشرقية من المخيمات!

أقدمت مليشيات مارون خوري يوم الرابع من كانون ثاني1976 على فرض طوق عسكري حول تل الزعتر انطلاقاً من الدكوانة، وترك المسلحون ممراً واحداً مفتوحاً، وتعرض المخيم لحصار تمويني مع اشتداد المعارك في طرابلس وبيروت والبقاع. منعت الرابطة المارونية والكتائب والأحرار مرور أربع شاحنات تموينية إلى المخيم؛ عبر حرش ثابت غربي تل الزعتر، وهددت بتدميرها. بعد ثلاثة أيام تمكن مقاتلون فلسطينيون ولبنانيون من مهاجمة المسلحين في حرش ثابت، ونجحوا بفتح ثغرة في الحصار الذي استمر محكماً طوال 22 يوماً. رد المسلحون بالاعتداء على مخيم الضبية شمال بيروت، ووقع في قبضة الكتائب بعد ثلاثة أيام من القتال الضاري، ودفع سقوط الضبية القوات اللبنانية الفلسطينية المشتركة إلى مهاجمة الجيه والدامور والسعديات جنوب بيروت.

في جولة ثانية من المعارك الضارية؛ تمكن المقاتلون من إنهاء عزل تل الزعتر، وتأمين مرور شاحنات التموين بانتظام، لكن جولة قتال واسعة اندلعت أواخر أيار 1976 شملت تل الزعتر، الدكوانة، جسر الباشا، الحازمية، الشياح، المسلخ؛ طالب على إثرها الجميّل بنقل تل الزعتر من المنطقة الشرقية؛ مهدداً أنه لا يعرف طبيعة الاحتمالات القادمة قائلاً بالحرف: «وجود المخيم في المنطقة الشرقية لا يشكل موقعاً استراتيجياً بمواجهة إسرائيل»! لكن حقيقة الأمر أن الأحزاب اليمينية التي يساندها الغرب، كانت تبحث عن إقامة (غيتو طائفي) مترف يشطب الأحياء

اللبنانية الفقيرة ومخيمات اللاجئين، فأقدمت على تنفيذ مجازر في الأحياء اللبنانية الفقيرة: سبينة وحارة الغوارنة في أنطلياس، وحي المسلخ والكرنتينا قرب المرفأ، وحاولت كسر شبكة المقاومة والحركة الوطنية الممتدة بين مخيمي تل الزعتر وجسر الباشا والنبعة، وقد أطلق عليها بجدارة (مثلث الصمود).

تعرض مثلث الصمود في حزيران 1976 إلى حصار تمويني استهدف المناطق الثلاث، واستمر زهاء شهرين بدعم أنطوان بركات الذي انشق عن الجيش اللبناني، وانتهى الحصار بسقوط مخيم جسر الباشا عسكرياً وإخلاء النبعة؛ تمهيداً لمجازر تل الزعتر، في حين واجهت القوات المشتركة يوم 7حزيران قوات النظام السوري في منطقة صوفر الجبلية لتأخير تقدمها نحو بيروت، وتصدت لها أيضاً في مدينة صيدا الجنوبية وأعطبت للقوات السورية 18 دبابة. ردت القوات السورية بقصف مكثف وعنيف لمناطق برج البراجنة، شاتيلا والطريق الجديدة غربي بيروت؛ مستهدفة قواعد المقاومة الفلسطينية والحركة الوطنية اللبنانية بقيادة كمال جنبلاط؛ وقد دفع الزعيم الفذّ حياته يوم 16 آذار 1977 على مذبح الحرية قبل أن يتجاوز الستين من عمره.

شددت الجبهة الفاشية اللبنانية الحصار على تل الزعتر في النصف الثاني من حزيران 1976 وتزايد الحصار عنفاً بالتدريج؛ تحت يافطة من التحريض الإعلامي مستنداً على قاعدة ثابتة واسطوانة لا تنقطع: «لا مدنيين في المخيم، وكل المقاتلين مرتزقة»! علماً أن تل الزعتر يسكنه 30 ألف نسمة، نصفهم ويزيد من اللاجئين الفلسطينيين والباقي من فقراء لبنان وسوريا ومصر.

خطة الاقتحام!

وضع الملازم ميشال عون قائد ثكنة الدكوانة خطة اقتحام تل الزعتر، وبدأ العدوان الغادر في الثاني والعشرين من حزيران 1976 بهجمات المليشيا المسلحة، سبقها قطع شبكة الكهرباء، وحظر وصول الطعام ومياه الشرب للفقراء واللاجئين!

في التاسع والعشرين من حزيران1976 أعلن الزعيم كمال جنبلاط أن كتيبة سورية عَبَرت إلى منطقة بيروت الشرقية بملابس مدنية، وشاركت في الاعتداء على المخيم، فيما أكد الشاهد أبو أيمن عبد الله أنه رصد من بعيد 19 مدفعية تقصف تل الزعتر بلا توقف بمساندة سورية، تحت إشراف العقيد علي المدني الذي شارك مع قادة الكتائب في غرفة عمليات عسكرية مشتركة في الدكوانة. في ظل الاشتباكات الواسعة على أكثر من محور للقتال، سقط مخيم جسر الباشا يوم 29 حزيران، وبدأ الصليب الأحمر باخلاء اللاجئين، وبدا سقوط جسر الباشا نذير شؤم على تل الزعتر.

أطلق قناص من داخل الزعتر رصاصة يوم 13 تموز قتلت وليم حاوي رئيس المجلس الحربي الكتائبي، وقد أشرف «بمهنية عالية وروح قتالية»! على قصف المخيم، وتسلم المنصب بعد مقتله العسكري المليشياوي بشير الجميّل الذي بحث عن أشرس السُبل للانتقام. ازداد العدوان شراسة على المخيم، وصد المقاتلون سلسلة من الهجمات بفضل سيطرتهم على التلال المحيطة بالتل، فيما ساندت بالقصف مدفعية القوات المشتركة المتمركزة في

تلال عاليه وصوفر؛ لتخفيف الضغط عن المحاصرين في المخيم، الذين تعرضوا المزيد من الهجمات عقب خطاب للرئيس السوري حافظ الأسد يوم 20 تموز؛ عندما أعلن فيه تأييده للجبهة الانعزالية اليمينية، ورفضه دعوة الزعيم التقدمي البارز كمال جنبلاط بتحرير لبنان من المليشيات الفاشية العنصرية! عقب خطاب الرئيس حافظ الأسد، عقدت المليشيات الانعزالية ومجموعات محلية مقاتلة يوم 29 تموز اتفاقاً يتيح بتهجير جماعي لأهالي حي النبعة نحو بيروت الغربية، و«سجلت» القوى الانعزالية «إنتصارا»! وأبدت «فرحاً» بتهجير الضحايا الأبرياء! وظل الاتفاقُ لغزاً سرياً لم يتم الكشف عنه حتى اللحظة.

بعد مرور شهر على حصار تل الزعتر شرقي بيروت، ظهرت أزمة مياه حادة عقب سيطرة الجبهة الانعزالية على الينابيع في محيط محوري المكلّس وبيت مري، وظلت بئر واحدة ضمن حدود المخيم تمد المحاصرين بالمياه، وقد تحولت للأسف إلى مصيدة موت وبخاصة للأمهات اللواتي يتمزقن على كوب ماء لإطفاء ظمأ أطفالهن! وقعت البئر تحت مرمى نيران المليشيا اليمينية ومدفعية النظام السوري وباتت مصيدة قتل بكل معنى للكلمة!

تم الاتفاق مع الجبهة الانعزالية يوم 6 آب برعاية الصليب الأحمر الدولي ومندوب جامعة الدول العربية حسن صبري الخولي على ضمان الخروج الآمن لسكان المخيم، لكن المليشيات تنكرت للاتفاق بعد خروج المجموعة الأولى من الأهالي تمهيداً لتنفيذ خطة المذبحة!

في العاشر من آب 1976 سقطت بئر الماء الأخيرة في قبضة المليشيات، وطلبت القيادة العسكرية للمقاومة الفلسطينية والحركة الوطنية اللبنانية من

المقاتلين الانسحاب عبر الجبال، ودعت المدنيين إلى تسليم أنفسهم إلى مندوب الصليب الأحمر الدولي؛ استناداً إلى اتفاق عقده الصليب الأحمر مع الجبهة الانعزالية، بتوقيع الخولي مندوب جامعة الدول العربية الموفد لحل أزمة تل الزعتر.

اجتاحت القوات الانعزالية المخيم يوم الثاني عشر من آب 1976 ونفذت سلسلة مروعة من المجازر ضد اللاجئين الفلسطينيين على وجه الخصوص وتركوا الجثث في العراء، وتعرض اللاجئون الذين خرجوا عبر طريق معمل البلاط في منطقة المكلّس الصناعية للتصفية بسلاح حراس الأرز بزعامة شارل عقل وحزب الأحرار بزعامة داني شمعون! في حين تمكن الصليب الأحمر الدولي من توفير 57 شاحنة نقلت 13 ألف لاجئ من سكان المخيم إلى بيروت الغربية.

صمد المخيم طوال 52 يوماً وقاتل ببسالة، وتعرض إلى قصف عنيف جداً طاول 55 ألف قذيفة بتغطية مدفعية النظام السوري، حتى سقط المخيم رغم الصمود الأسطوري لمقاتليه يوم الثاني عشر من آب 1976، وأعلن عن سقوطه رسمياً واستسلام المدنيين الفقراء بعد يومين من بدء المجازر في الرابع عشر من آب 1976، وذلك بعد أن فشلت كل محاولات القائد العسكري البارز محمد عودة (أبو داود) بتنفيذ خطة تفصيلية محكمة لفك الحصار، وللأسف لم يتمكن القائد الصلب من تنفيذها لاصطدام الخطة بمجموعة عوائق بيروقراطية.

سيطرتْ المليشيا على الشوارع، ونصبتْ الحواجز العسكرية بكثافة بين منطقتي الدكوانة والمتحف، واستخدمت الطلقات النارية والسكاكين بقتل

الأبرياء، تحت صمت وتغطية قوات النظام السوري: أكد حسن صبري الخولي، مبعوث الجامعة العربية لانهاء أزمة تل الزعتر، لصحيفة السفير اللبنانية (13 آب 1976) أنه التقى العقيد علي المدني مسؤول الاستخبارات العسكرية السورية برفقة ضباط سوريين، في غرفة العمليات المشتركة لحزب الكتائب في منطقة سن الفيل، في حين أوردت الكاتبة اليسارية تابثا بتران في كتابها الموضوعي (الصراع حول لبنان) أن مدفعية النظام السوري شاركت في دك مخيم تل الزعتر وحولت بيوت الصفيح إلى رماد!

أساليب قتل وحشية

نفذت المليشيات اليمينية بعد اقتحام المخيم مجازر مروعة لا زالت تنتقل من جيل إلى آخر في لبنان والشتات: قبض القتلة على عدد من المقاتلين وأبرزهم محمود كروم، عضو منظمة الصاعقة السورية الذي دافع ببطولة عن المخيم معترضاً على تحالف الصاعقة مع القوات السورية، وتم تمزيقه إرباً بين سيارتي جيب! وتعرض المواطن أبو ياسين لنفس عملية التمزيق انتقاماً من أبنائه الذي قاتلوا ببسالة على المحاور؛ فقد ربط أفراد الكتائب أبو ياسين بين سيارتي جيب ومزقوه.

رفض القائد العسكري للجبهة الشعبية لتحرير فلسطين محمد عبد الكريم الخطيب (أبو أمل) في تل الزعتر الاستسلام رغم جراحه الخطيرة، وطلب من أفراد عائلته تجميع كل السلاح المتاح بجانب سرير شفائه في المنزل، وعندما هجم القتلة على بيته لاعتقاله، واجههم القائد الشهيد (أبو أمل) ببسالة أسطورية وأطلق الرصاص نحوهم وقتل ثلاثة منهم، وفجر البيت فوق

رؤوسهم مستعيداً صرخة الشهيد غسان كنفاني«**لا تمت قبل أن تكون نداً**».

ولد الشهيد أبو أمل سنة 1933 في قرية الفراضية على بُعد عشرة كيلو مترات جنوب غربي مدينة صفد في الجليل الأعلى. إخترقت الطريق التي تربط صفد بالناصرة الأطراف الشمالية للقرية الصغيرة؛ التي لم يتجاوز تعداد سكانها 700 نسمة عام 1948، استشهد منهم مائة مواطن أثناء اعتداءات العصابات الصهيونية على القرية خلال النكبة الكبرى التي شهدت سلسلة من المجازر والتطهير العرقي.

لجأ مع عائلته إلى لبنان، ولم يتمكن من إكمال تعليمه فأشتغل في محطة للوقود، ثم إنضم إلى حركة القوميين العرب في الخمسينات، والتحق بذراعها المقاتل (شباب الثأر)، واعتقل مراراً في السجون اللبنانية على خلفية نشاطاته العسكرية ضد الكيان المحتل. التحق بالجبهة الشعبية لتحرير فلسطين، وقاد عمليات عسكرية في الجليل الأعلى سنة 1970. تسلم الشهيد ابو أمل مسؤولية صمود تل الزعتر تحت الحصار، واستشهدت كريمته سهيلة (18 سنة) برصاص قناص أثناء عملها الطوعي في المجال الطبي لمساعدة الجرحى، ثم استشهد نجله البكر بعد اصابة بليغة، واضطر للموافقة على خروج أفراد عائلته من المخيم تحت ضغط وإصرار زوجته التي تبحث عن طريق نجاة لأطفالها الصغار الستة بعد استشهاد نجليّها. أثناء خروج العائلة سمعت كريمته ماجدة، عبر مكبرات الصوت، نداءً متكررًا لأحد عناصر الكتائب: سلموا أبو أمل يسلّم المخيم! حينها أدركت الصغيرة أنها لن تشاهد والدها مرة أخرى وقد تركته جريحاً ينزف وبات مهدداً بالقتل.

ضاعت كل الصور الشخصية للقائد العسكري أبو أمل نتيجة التهجير القسري والمستمر لأفراد عائلة الشهيد، ولم يتبق سوى صورة يتيمة في برواز متواضع؛ تعرضت لاطلاق نار من عناصر حركة أمل أثناء حرب المخيمات سنة 1985 باسناد سوري! اقتحمت عناصر حركة أمل بزعامة نبيه بري، منزل عائلة الشهيد في حي فرحات بضاحية الغبيري، وأطلقت «أمل» النار على صورة القائد (أبو أمل)!.. هل نعثر على مفارقة أكثر بشاعة من هذا السلوك الاجرامي: استشهد أبو أمل برصاص الكتائب وباسناد القوات السورية، وتعرضت عائلته للتنكيل برصاص حركة أمل وباسناد القوات السورية؟!

أحد الشبان تمكن بصعوبة من ترميم الصورة اليتيمة لتظل شاهداً على الغدر المزدوج بحق المقاومة، في حين تعيش أرملة الشهيد السبعينية وبناتها في شقة متواضعة جداً أعلى عمارة سكنية متهالكة تقع بأحد أحياء صيدا في جنوب لبنان، وتعيش الأسرة ظروفاً اقتصادية وصحية قاسية جداً.

دعا القتلة أهل المخيم إلى الخروج الآمن، ثم أطلقوا ناراً غزيراً عشوائياً نحو النساء والشيوخ والأطفال، وقد أبيدتْ عائلات بأكملها، وتعرضتْ اليافعات للاعدام والاغتصاب، ودفعتْ الأمهات دماً لبلوغ نبعة ماء للشرب، وطالب الأهالي بفتوى تحلل أكل القطط والكلاب بعد نفاذ المواد التموينية الأساسية! وتعرض مقاتلون بعد أسّرهم في حارات المخيم للتصفية بدم بارد، وسجل التاريخ أن مجازر تل الزعتر شكلت مأساة تراجيدية جديدة في سفر عذاب اللاجئين الفلسطينيين في لبنان والشتات والضفة وغزة منذ النكبة الكبرى 1948.

بعد مرور أربعين عاماً، لا زالت مجازر تل الزعتر تحتجز وجدان أبناء الشعب الفلسطيني، وستبقى قائمة في الذاكرة الجماعية إلى جانب مجازر صبرا وشاتيلا وقانا التي نفذت بعدها، ومجازر دير ياسين وكفر قاسم والدوايمة وعشرات المذابح والتطهير العرقي التي نفذت قبلها. . وستبقى شهادات الناجين من تل الزعتر حاضرة بصورة دائمة؛ كلما طلّت أشهر نيسان وأيار وحزيران وتموز وآب من كل عام.

إيفا: وفاء بطبعة سويدية

الممرضة السويدية المتطوعة إيفا شتال سَردَتْ قسوة تجربتها في تل الزعتر، ووضعتْ يوميات الجرائم في كتاب (تل الزعتر قصة البطولة والمأساة) بمشاركة الصحفي السويدي اندريه هاسليوم. سيبقى الكتاب (42 صفحة من القطع الصغير بتوقيع منشورات الناصرة آب1977) يشكل وثيقة هامة في كشف الجريمة التي استهدفت اللاجئين الفلسطينيين وفقراء لبنان وسورية في تل الزعتر.

تعاطفتْ إيفا أثناء دراستها الثانوية في السويد مع الثورة الفيتنامية، والتحقتْ مطلع السبعينات بالحركة اليسارية السويدية، وقرأتْ في أدبياتها عن المقاومة الفلسطينية، وكانت قد درسَت اللغة الانجليزية قبل أن تتابع تعلم مهنة التمريض. عرضتْ الحركة اليسارية السويدية على المقاومة الفلسطينية تزويد عياداتها بالأطباء والممرضين، ووافقْت إيفا على شروط اليسار السويدي: عمل طوعي دون راتب، تغطية تكاليف

السفر إلى بيروت مسؤولية المتطوع، السكن في منازل العائلات الفلسطينية المستضيفة وتحمل تكلفة العيش ومخاطر الإقامة. وصلتْ تل الزعتر أواخر 1974 وأقامت رغم البرد القارص في بيت من صفيح مع عائلة كبيرة، وأطلق عليها الأهالي (سميرة) وبات الإسم المتداول في المخيم.

تعرفتْ على يوسف حمد (28 سنة) الناشط في اللجان الطبية والصحية التابعة للجبهة الشعبية لتحرير فلسطين، قبل أن تتزوجه في خريف 1975، وقد واصلتْ العمل الطوعي في العيادة الشعبية متعددة الخدمات برفقة زوجها أثناء اشتداد الحصار على تل الزعتر.

شهدتْ ليلة 13 حزيران 1976 قصفاً شديداً أثناء نوم الزوجين بعد يوم عمل شاق، وقد سمعتْ زوجها يهمس مازحاً قبل نومه: ربما نموت الليلة يا إيفا. للأسف صدق التوقع وكأنها نبوءة قديس.. تضمن الكتاب وقائع غياب زوجها: «استيقظتُ مذعورة على انفجارات هائلة ونار حادة تحرق ساقي اليسرى، وشعرتُ أني طرتُ مع يوسف في الفضاء. كنتُ أصرخُ وأنادي عليه دون رد. .لففتُ بيدي اليسرى طرف البيجاما حول ساقي اليسرى لمنع النزيف، ورفعتُ بيدي الجزء المتدلي من ذراعي الأيمن إلى الأعلى لأتمكن من التوازن».

كسر الجيران الباب ونقلت الجريحة إلى مشفى الهلال الأحمر: خضعتْ لعملية جراحية سريعة، ثبّت فيها الأطباء الأجزاء المكسورة من عظام ساقها بألواح خشبية، وتم بتر نصف ذراعها الأيمن. مكثتْ في المشفى عشرة أيام قبل أن ينفجر جنون القصف الوحشي يوم 22 حزيران: «بدأ القصف عند السادسة صباحاً وحتى الثامنة مساء، وسقط على المخيم 12 ألف قذيفة

بمعدل 28 قذيفة في الدقيقة الواحدة. شاركتْ قوات سورية في القصف إلى جانب الكتائب. لن أنسى ذلك اليوم، لقد دمر المخيم تدميراً شاملاً، وأصبحتْ المستشفيات خراباً، البيوتُ رمادا، وتناثرت مضخات مياه الشرب. .كانت وحشية متناهية، أنا عاجزةٌ عن وصف تفاصيل مأساة المخيم بدقة لأنها أكبر من الوصف»! تنقلتْ في عدد من بيوت الصفيح حفاظاً على حياتها، لكن البيت الذي أقامت فيه تعرض ليلة الخامس من تموز للقصف، وشعرتْ بمخاض الولادة ونزفتْ دماً كثيراً، وأجري لها في الصباح عملية اجهاض، وللأسف فقدتْ جنينها: «بكيتُ بكاء هستيرياً. . كان الجنينُ كل ما أملك لأعيش من أجله وأنجو من مجزرة رهيبة».

تمكن الصحافي السويدي هاسليوم ويعمل مراسلاً في بيروت من محادثتها عبر اللاسلكي بعد أن علم بوجودها في المخيم، وسُعدتْ بصوته مثلما فرحتْ ببرقية تلقتها من والدها ووالدتها في السويد تشّد من أزرها وتتعاطف مع ضحايا المخيم. ضغَط هاسليوم على السفارة السويدية والصليب الأحمر لاخراجها، لكن إيفا فرضتْ شروطها: لن أغادر إلا برفقة جرحى إصاباتهم حرجة جداً، ونجحتْ في إملاء موقفها على قادة الجبهة الانعزالية وحلفائهم. غادرتْ المخيم بوداع مؤثر جداً برفقة سيارتين تحملان أحد عشر جريحاً، واستجابتْ بتعليمات من الصليب الأحمر على البقاء صامتة أثناء عبورها حواجز القتلة: «قفز أحد أفراد الكتائب داخل إحدى الشاحنتين، وإختار منها جريحاً وطعنه بحربة بندقية. .وأخذ يصرخ هنا الأجنبية زوجة يوسف حمد». توسل مندوب الصليب الأحمر مدعياً: «كلهم أصيبوا بانفجار أجهزة الغاز» وبمعجزة تجاوب مسؤول

الحاجز الكتائبي مع الإدعاء وسمح لقافلة الصليب الأحمر بمواصلة سيّرها نحو بيروت الغربية.

عادتْ إلى وطنها السويد مثخنة بالجراح وبإسم جديد: سميرة حمد، وقد وثقت بحزن شديد في نهاية الكتاب الكارثة التي عصفت بأشقاء وشقيقات زوجها الشهيد يوسف حمد؛ الذي فقد والدته سنة 1970 قبل ست سنوات من تدمير تل الزعتر: «تعرض والد يوسف للأسر، ولا أدري إن كان حيّاً أو ميتاً. سامية (25 سنة) أم لثلاثة أطفال على قيّد الحياة لكن زوجها أبو نادر إختفى، ويحتمل استشهاده. استشهد سامي (19 سنة) في محاور الدفاع عن المخيم. الشقيقة وداد (21 سنة) أظن أنها على قيّد الحياة. أصيب جمال (14 سنة) برصاصة في رقبته عندما غادر المخيم، وهناك شك كبير بعلاجه وبقائه على قيّد الحياة». في السنوية الأربعين للمذبحة من المقرر أن تشارك إيفا حمد في المهرجان الحاشد لضحايا تل الزعتر في العاصمة الألمانية برلين يوم الثاني عشر من آب 2016، لعلها تعثر بين الحضور على والد زوجها والأحباء سامية ووداد وجمال وأولادهم وأحفادهم.

حزنٌ يكوي القلب

ما يحزّ في قلبي كثيراً غياب إيفا حمد عن فضاء مهني وإنساني وكفاحي لمجموعة متميّزة من صحافيي فلسطين لم تبرع بالتقاط تجربتها واستعادة حضورها الفذّ في نقاشاتنا المهنية: شاركتُ صيف 1997برفقة فريق صحافي فلسطيني بارع، في برنامج متخصص بدورة تدريب مدربين

بمدينة كالمر جنوب السويد، بدعوة من مؤسسة (سيدا) وترشيح من دائرة الإعلام في جامعة بيرزيت. تناول النقاش ألوان الكتابة الإبداعية، وفن تركيب القصص الإخبارية، وكيفية نقلها بحرفية إلى الصحافيين المبتدئين، وفنون تدريبهم، وفضاء نشاطهم الكتابي الابداعي. لكن للأسف غابت النجمة السويدية من سماء زملاء وزميلات مهنيين محترفين ولامعين؟ لا أعرف كيف تبخرتْ، ولا أمتلكُ أجوبة على ذلك، فقط أغرفُ حزناً كبيراً الآن على عجزنا المهني في التقاط قصص أنصار فلسطين، وحكايات ضحايا شعبها المشرد! آمل أن لن تغيب إيفا حمد أوسميرة شتال، عن التغطية الصحفية المهنية خلال مهرجان برلين في الأيام القليلة القادمة، لعل شهادتها المحكمة الطاهرة تجد طريقاً للترجمة باللغة الألمانية، وعدد من الأبجديات العالمية واسعة الانتشار، وتعثر تجربتها الكفاحية الصلبة على الاهتمام بوسائل التواصل الاجتماعي، لترتفع إيفا شتال عالياً فوق أسماء الشوارع والميادين والمدارس في مدن وقرى الوطن المحاصر ومخيمات اللجوء والشتات؛ لأن تواضعها، وكفاحها الأخلاقي، ومسيرتها الصلبة؛ وتماسكها القائم يستحق عمراً من التأمل للوقوف على صدق التجربة والانتماء الأممي للفقراء.

معجزة نجاة الأطباء!

صباح الثاني عشر من آب 1976، قرر الدكتور يوسف عراقي الذهاب إلى عيادة المخيم كالمعتاد، وحال دون ذلك قصف عنيف استهدف البيوت المجاورة. وصل ممرض وأخبره أن ميليشيا الجبهة الانعزالية اقتحمت

العيادة، ونفذت عملية قتل جماعي بحق الجرحى والمدنيين الذين لجأوا اليه هروباً من القصف المدفعي الكثيف. اتجه عراقي إلى مركز الطوارئ، وشهد حول المبنى المتواضع معركة قاسية بين مقاتلي المقاومة والحركة الوطنية اللبنانية من جهة ومسلحي الجبهة الانعزالية من جهة أخرى، في محاولة يائسة لحماية الجرحى والنساء والأطفال والمسنين. اجتاح مسلحو الجبهة اليمينية الفاشية بأعداد كبيرة مركز الطوارئ قادمين من محور الدكوانة الشمالي، عندما حاول عراقي مع زميله الدكتور عبد العزيز اللبدي والممرضين ترتيب عملية نقل الجرحى إلى بناية مجاورة. رفضتْ المليشيات المسلحة ذلك وتجاهلت حقوق الجرحى ونداء الاستغاثة، وطلبتْ منهم مغادرة العيادة وخروج الطاقم الطبي عبر ممر إجباري؛ حيث ينتظرهم الصليب الأحمر الدولي! وكان خروجاً محكماً إلى مصيدة موت مريع وفق وصف الدكتور عراقي.

سار يوسف عراقي منذ التاسعة صباحاً برفقة زوجين طبيبين سويديين يتبعهم طاقم التمريض حاملا الجرحى على ألواح خشبية والمتاح من أدوات بسيطة. أصدر مسلح فاشي في أول حاجز عسكري أوامره بوقوف الجميع على الحائط استعداداً لاطلاق النار عليهم. انشغل المقاتلون بأحاديث جانبية، وطلب عراقي من الممرضين التحرك بسرعة مع الجرحى والاختفاء بين جموع الأهالي الخارجين من تل الزعتر، وخلع الرداء الأبيض وإشارة الهلال والصليب الأحمر، لأنه أدرك أن أمراً غامضاً يدبر للطاقم الطبي. تقدم عراقي في الممر الإجباري تحت طلقات ناريةفوق رؤوس الفارين، واصطدم بمسلحي الحاجز العسكري الثاني؛ الذين قرروا تصفية الطاقم

الطبي فوراً! فجأة تقدم مسلح نحو الدكتور عراقي ونادى عليه بإسمه، واستعاد معه وقائع العملية الجراحية الخطيرة التي أجراها له وأنقذت حياته، وقد وصل الجريح الكتائبي إلى عيادة المخيم قبل بدء الحصار على تل الزعتر مطلع 1976.

جرت مشاجرة بين عناصر الحاجز على قرار التصفية الجسدية، وحينها وصل ملازم من جيش التحرير الفلسطيني وكان يقيم في المخيم، عانق عراقي، وقدم نفسه لمسلحي الحاجز بأنه ضابط سوري وحسم الموقف، وحاول الملازم جهده إنقاذ المرضين والجرحى لكن دون جدوى. شاهد عراقي عملية حجز الطاقم الطبي في طابور، وتلقى أفراد الطاقم أوامر من مليشيا الحاجز العسكري بالسير إلى الأمام، قبل أن يتم نقله برفقة الطبيبين السويديين خلف بناية مجاورة. شاهد عراقي أحد القتلة يطلق صليات رصاص من بندقية، وسمع عقبها أصوات صيحات الضحايا. استعاد صورة فاشي ضخم الجثة، يحمل سكيناً كبيرة تقطر دماً: كل ثلاث دقائق يعود إلى مدخل البناية ويمسح سكينه الملطخة بالدماء بقميص مدني يجلس مرتعداً على درج المبنى!

وصل بعد ساعة من الزمن أحد مسؤولي أمن المليشيات المسلحة، وقاده برفقة الطبيبين السويديين والضابط السوري إلى خارج حدود تل الزعتر في أطول طريق قطعها في حياته: شاهد مئات الجثث الطاهرة للأطفال والنساء والشيوخ على جانبي ممر إجباري لا يتجاوز 300 متر. في نهاية الطريق القاتلة نقل بسيارة إلى مكتب أمين الجميّل مسؤول حزب الكتائب، وقد خاطبه الأخير بسخرية: «لستُ فاشياً. أنظر يدي نظيفة غير ملطخة

بالدماء»! طلب عراقي من مندوب الصليب الأحمر البحث عن زميله الدكتور اللبدي وطاقم الممرضين، وتحركتْ سيارة الصليب الأحمر إلى منطقة الدكوانة لانقاذ الطاقم الطبي. أثناء فترة البحث عن اللبدي، تعرض عراقي للتحقيق والاستجواب في مكتب الجميّل، وبدا واضحاً من الأسئلة التي نشرها الدكتور في شهادته حجم كراهية الكتائب العنصرية لمقاومة الشعب الفلسطيني والحركة الوطنية اللبنانية. في ساعات العصر وصل اللبدي سالماً، وتعرض لنفس أسئلة التحقيق وطريقة الاستجواب.

شاهد من شرفة مكتب الجميّل مظاهر ابتهاج المليشيات الانعزالية «بالانتصار»! ودقق بنزعة سادية تتلذذ بالذبح والقتل والسحل! وصل المصري حسن صبري الخولي وتفاوض طويلا مع أمين الجميّل لاطلاق سراح الأطباء. في السادسة مساء استقل الأطباء سيارة الخولي وقادها الجميّل، واجتازت اثني عشر حاجزاً عسكرياً في المنطقة الشرقية شكلتْ مصيدة لقتل الناجين من الطوق العسكري حول تل الزعتر. وقفتْ السيارة في منطقة المتحف على خط التماس بين بيروت الشرقية والغربية ترجل منها عراقي، وتابع سيره برفقة الأطباء الثلاثة باتجاه بيروت الغربية، حيث كان ينتظرهم مندوب الصليب الأحمر الدولي.

ذكريات دامية!

كتبت الصحافية هبة الجنداوي من بيروت تقريراً إخبارياً بمناسبة السنوية الأربعين للمذبحة نشرته شبكة العودة منتصف آب 2016؛ تناولت فيه

ذكريات عدد من سكان تل الزعتر: بعد أسابيع على المجزرة، تقدم وسطاء من الكتائب والأحرار وبعض الجنود السوريين؛ بعرض لنقل جثامين شهداء من تل الزعتر لدفنها في مقابر أخرى خارج المخيم!

علمت أم وائل الأسعد بإمكانية استخراج جثامين الشهداءمن أرض المخيم ودفنها في مقابر أخرى؛ بعد أن كان ذلك حلماً صعب المنال، قالت: «ذهبتُ برفقة أم محمد الدوخي إلى القوات السورية المتمركزة قرب تل الزعتر المعزول، وأخبرتهم بقراري استخراج جثمان زوجي. طلبوا مبلغاً من المال نظير تأمين وصولنا. دفعتُ مبلغاً وسمحوا لي بالدخول إلى المخيم. بدا الدّمار سيّد المكان، وجدتُ بيت العائلة الذي تزوجت وأنجبت فيه، وقضيتُ أيام الحصار الجائر محتميةً تحت سقفه محترقاً بالكامل! فاحترق ما تبقى من قلبي»!

عثرتْ أم وائل على مساعدة لاستخراج الجثمان. وحينها وصلتْ عصابة من الكتائب وسألتْ: هل تريدين استخراج جثة زوجك أم استخراج المال والذهب؟ ردتْ: انتظروا وستشاهدون بأعينكم! وفعلاً حينما بدأتُ باستخراج جثمان زوجي غادر أفراد العصابة المكان.

حملتْ أم وائل الجثمان كأنها تحمل كنزاً ثميناً، وقالت: كم تألّمنا وذقنا المرّ منذ بدء مسلسل النكبة، هل يُعقل دفع مال للحصول على جثامين الأحباء وإعادة دفنها وقد قضوا بغير ذنبٍ اقترفوه.

استخرجتْ بعض العائلات جثامين أقربائها من ساحات تل الزعتر، ودفنتها في مقابر قريبة من مكان اللجوء الجديد! وهناك مقبرة جماعية

لشهداء المجزرة في مقبرة شهداء مجزرة شاتيلا: شهداء مجزرة بجوار شهداء مجزرة؛ ليظل الدليل قائماً على الدم الذي أغرق لاجئي مخيم تل الزعتر المنكوب، والقتل الأعمى الذي استهدف مخيمي صبرا وشاتيلا أواسط أيلول 1982.

أربعة آلاف ضحية!

استشهد في تل الزعتر أكثر من أربعة آلاف لاجئ وفقير، معظمهم من الأطفال والنساء والمسنين، وتوفي عدد منهم عطشاً في أسبوعي الحصار الأخيرين، بعد أن أصبح مصدر الماء الوحيد المتبقي لسكان المخيم تحت مرمى نيران المليشيات. وأعلن المركز الفلسطيني للإعلام في بيروت أن حصيلة المذبحة بلغت 4280 شهيداً وآلاف الجرحى المدنيين. وأفاد محمد شمس نائب رئيس رابطة مخيم تل الزعتر في لبنان أن عدد المفقودين بلغ حتى اليوم، بعد أربعين عاماً على المجزرة، ألفي مفقود لا زال مصيرهم مجهولاً حتى اللحظة.

سقط المخيم، وشرعت جرافات الكتائب فوراً بتدمير المساكن المهدمة وتسويتها بالأرض، وتم تشريد ما تبقى من لاجئين إلى البقاع وبعلبك ثم الدامور الساحلية قرب بيروت، وهجروا منها لاحقاً للاقامة في مساكن من صفيح بجوار مخيم البداوي قرب طرابلس شمال لبنان، ووصلتْ أعداد منهم بالتدريج منذ آب 1976 وحتى أواسط الثمانينات إلى العاصمة الألمانية برلين.

بعد تدمير تل الزعتر، بدأت معاناة الناجين منه: تهجّر والد أبو أيمن عبد الله ووالدته وأشقاؤه وشقيقاته إلى منطقة السفارات في بيروت الغربية، ثم انتقلتْ إلى منطقة الدامور. تعاون أبو أيمن مع مؤسسة (صامد) بإقامة مصنع دباغة وجلود في الدامور، وعثر نحو خمسين عاملا من مهجري الزعتر على عمل لهم في المصنع، لكن الغزو الإسرائيلي للبنان مطلع حزيران 1982 دمّر بلدة الدامور فوق المصنع! انتقلت العائلة مع بعض لاجئي الدامور إلى مخيم شاتيلا ونجت عائلة عبد الله من مجزرة جديدة أواسط أيلول 1982، لكن والده الذي نجا من المجازر المتعددة توفي وزوجته تباعاً عقب الغزو الإسرائيلي، وعندها قرر أبو أيمن الهجرة إلى ألمانيا.

وصل برلين مع بعض أفراد عائلته أواخر 1982، وحصل على إقامة دائمة سنة 1989 ثم نال الجنسية الألمانية سنة 1994، وقرر مباشرة العودة إلى لبنان وزيارة تل الزعتر: شاهد بقايا ركام المخيم، وقد نالت جرافات الكتائب الفاشية من صفيحه المتواضع، ومسحته بالكامل لعلها تثأر من مقاومة باسلة. اعترف أبو أيمن عبد الله في مكالمة هاتفية حادثته فيها مطولاً: «لن يصدق أحد أن هذه البقعة الصغيرة كانت تضم مخيماً فلسطينياً يسكنه 30 ألف نسمة نصفهم تقريباً لاجئين والباقي من فقراء لبنان وسوريا»!

سقط تل الزعتر، لكنه سيبقى رمزاً أسطورياً للصمود اللبناني الفلسطيني، وسيظل حاضراً في الذاكرة حتى ينال شعب فلسطين حقه في الاستقلال، وتنال سارة عبد الله الزعتر حقها في البقاء فوق تراب وطنها بعيداً عن قسوة المنفى.

يواصل أهالي تل الزعتر في لبنان والمنفى التذكير سنوياً بوقائع المجازر المروعة التي نفذها اليمين الفاشي بغطاء النظام السوري: عقدت رابطة تل الزعتر في برلين مهرجاناً جماهيرياً حاشداً في العاصمة الألمانية يوم الثاني عشر من آب 2016، بمشاركة الممرضة السويدية ايفا شتال، والطبيبين الفلسطينيين يوسف عراقي المقيم في النرويج، وعبد العزيز اللبدي المقيم في ألمانيا؛ وبحضور مجموعة من الضحايا وعدد من ذوي العائلات التي فقدت صغارها أثناء الحصار والمجازر، حيث استفادت بعض المؤسسات الطائفية مالياً من مشروع تسريب بعض الرضع والأطفال لعائلات أجنبية بغرض التبني!

حفظ المهرجان ذاكرة فلسطينية وثقت بموضوعية لجرائم القتل الأعمى المأجور، ودان التطهير العرقي في فلسطين، على أمل أن تنهض لجنة متخصصة لمتابعة تدوين شهادات جديدة وتفصيلية للناجين من المجزرة، ونشرها وتوزيعها بكثافة عبر وسائل التواصل الاجتماعي المتاحة على نطاق واسع؛ لعل وقائع الشهود تلتقط تفاصيل المجزرة المروعة في زعتر مقاتل وتل مقاوم، وتعبد الطريق لتدوين المجازر التي استهدفت شعب فلسطين، وبخاصة فقرائه، منذ مائة عام وأكثر، من أجل تجديد ذاكرة الأجيال تحت شعار: لن ننسى، ولن نسامح، ولن نغفر لأحد؛ مهما تعددت طبعة القاتل، وتغيّرت صورة الجلاد، وستبقى الأجيال حريصة على بناء الروايات الشفوية وقد غابت بفعل صمت الضحية، وتحرص على جمر النشيد في قصيدة محمود درويش، ليظل أحمد الزعتر ينبض

في مخيم «ينمو وينجب زعتراً ومقاتلين»، فيما تردد إرادة المنتصر بصوت مرتفع:

أنا أحمد العربي
فليأتِ الحصار
جسدي هو الأسوار
فليأتِ الحصار
وأنا حدود النار
فليأتِ الحصار
وأنا أحاصركم أحاصركم
وصدري باب كل الناس
فليأتِ الحصار.

المصادر

- مقابلة عبر الهاتف مع الشاهد محمد إبراهيم عبد الله (أبو أيمن) من مكان إقامته في المنفى. العاصمة الألمانية برلين، تموز 2016.
- إيفا شتال، **(تل الزعتر قصة البطولة والمأساة)**. الصحفي اندريه هاسليوم، 42 صفحة من القطع الصغير. منشورات الناصرة، آب1977.
- أسعد أبو خليل، مقالة (تل الزعتر: حتى لا ننسى ولا نغفر). جريدة الأخبار اللبنانية، 22 آب 2015.
- الجزيرة نت. يوميات حصار المخيم، ريبورتاج: (مارلين الفرنسية ابنة تل الزعتر).
- شهادة الدكتور يوسف عراقي، بتصرف. منشورة في عدة مواقع إلكترونية.
- هبة الجنداوي. تقرير إخباري. شبكة العودة، بيروت 10 آب 2016.
- عبير حيدر، ريبورتاج. جريدة المدن الالكترونية. بيروت، 3 آب 2013.
- وليد الخالدي. **كي لا ننسى**. مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت. الطبعة الأولى 1997.

